

# من جبل طارق إلى غرناطة: ٨٠٠ سنة من طارق إلى أبي عبد الله

لندن - أرشد غاميت

إذا قمت بسفرة في جنوب أسبانيا، من جبل طارق إلى غرناطة، فإنك تقطع حوالي 200 ميل من الأندلس. لكثك تقطع أيضا تقريبا 800 سنة من التاريخ الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية. تلك القرون الثمانية كانت الفترة الرائعة في مجمل تاريخ أوروبا. ولم ينحصر عمل مسلمي الأندلس بإبداع أكثر الآثار جمالاً والتي تشد الأبصار، ولا أيضاً في حفظهم لثقافة اليونانيين القدماء والرومان للأجيال القادمة. لكن في تبني مناخ التنوع أيضاً: من الخطاب الفكري والنقاش. من الانسجام الاجتماعي والتسامح الديني الذي ما زال حتى اليوم، في الألفية الجديدة، هو موضع تقدير العالم.



عمود مقرنص مع قوس في قصر الناصر في الحمراء. Capital and arch of Nasrid Palace in the Alhambra.

انكسروا فارين في حالة من الفوضى. ترك البعض المعركة وانضم آخرون إلى المسلمين. وفتح هذا النصر الطريق أمام العصر الذهبي لإسبانيا. والذي أدى بدوره إلى عصر النهضة في أوروبا. الإسلام الإسباني كان له تأثير عميق على التاريخ العالمي. وهنا في قرطبة وغرناطة. كما في دمشق وبغداد ومدن إسلامية ريفية أخرى. ازدهر التعليم. في وقت كانت تسود مجتمعات أخرى الخرافة والخوف. وبينما اضطهدت معظم أوروبا اليهود واستعبدت الفقراء. لم يحم الفاتحون المسلمون الأقليات الدينية فحسب. لكن بتبني

هناك معنى للهروب. فركزت عقولهم بشكل حاد على المعركة. كل شيء بالنسبة لهم معرض للخسارة. وكل شيء معرض للكسب. وثالثاً. في إرسال اهتزازات الرعب في صفوف الجيش الإسباني. فأى مجانين كانوا هؤلاء. ليحرقوا سفنهم بأيديهم عندما يفوقهم العدو عدداً تاماً؟  
دامت المعركة نفسها أربعة أيام. أربعة أيام غيرت تاريخ أوروبا بشكل حاسم. وفي الحقيقة. تاريخ العالم. وقاد طارق بنفسه المهمة الرئيسية. عندما قتل الملك رودريك. كانت القوّات الإسبانية محيطة جداً بحيث أنه على الرغم من تفوقهم العددي.

أهمل المؤرخون الغربيون لفرون طويلة معظم ذلك التاريخ وكانوا أكثر اهتماماً بترويج وجهة نظر أوربية صرفة. لذلك ظل الغربي العادي جاهلاً بشكل كبير بالتراث الغني الذي تركه المسلمون في إسبانيا. وأن بدت في عهد قريب فقط تنمو نظرة متوازنة ومنتفحة. ترك المسلمون العديد من المساهمات المهمة التي مكنت من قيام حضارتنا المعاصرة المبنية على التقنية. تتناول هذه المقالة بضع لحظات مثيرة من تاريخ الوجود الإسلامي المشرق والطويل في جنوب أسبانيا.

لن يحتاج التعرف على جبل طارق أكثر من رحلة نهار. فهو بروز صخري كلسي ضخم على الرأس الجنوبي لأسبانيا. يطلّ على المغرب. على بعد 12 ميلاً لا غير. "الصخرة" قلعة طبيعية. فيها نغرات لمواضع البنادق والتجهيزات العسكرية الأخرى. يعتبر جبل طارق ملاذاً ضريبياً للأثرياء. وأيضاً بيتاً لعدّة مستعمرات من "قروء بربرية" لا توجد في غير هذا المكان. والمنطقة صغيرة جداً بحيث إنك عندما تدخل المقاطعة من "لا لينيا" في أسبانيا. يجب عليك أن تعبر مدرج المطار الرئيسي بين عمليات الهبوط والإقلاع. لكي تصل مركز المدينة. و"جبل طارق" هو تسمية عربية. ومنه تبدأ رحلتنا ذات الـ 200 ميل من الجغرافية و800 سنة من التاريخ.

في السنة 711 ميلادية (92 هجرية). جاء طارق بن زياد من شمال أفريقيا. لتحرير أسبانيا من سنوات الوحشية تحت حكم القوط الغربيين. وكان "الملك رودريك" يضطهد شعبه كثيراً. لذلك ذهب "الكونت جوليان". حاكمه في سبته. على الساحل الأفريقي الشمالي. إلى موسى بن نصير. حاكم شمال أفريقيا. ودعا المسلمين لتحريرهم.

واجهه 12,000 مجاهد 60,000 أسباني في معركة "مدينه سيدونيا". قرب جبل طارق. وكان جيش الإسبان يتفوق على جيش طارق عددياً بنسبة 1:5 لكن تقواهم وإيمانهم. وارتباطهم بالله وإخلاصهم منجهم الفوز رغم قلّة عددهم.

وعندما تجمّع جيش الملك "رودريك" الضخم أمام جيش طارق. أظهر لهم طارق تلك النوعية من القيادة التي حملت الإسلام إلى الزوايا البعيدة للعالم. وفي واحدة من أجمل الخطابات وأكثرها بلاغة وإلهاماً في التاريخ. ناشد طارق رجاله ليظلّوا ثابتين. وليذكروا الله تعالى. وليقاتلوا حتى يمنحهم إما النصر أو الشهادة. لكنه لم يقدم مجرد كلمات فارغة. وإنما قاد الجيش بنفسه وكان في مقدمة الجبهة. شأنه شأن القادة الأفاضل فقاد فرسانه للهجوم على قلب الجيش الإسباني الضخم مباشرة.

وعندما سأل رجاله عن مستعد ليخلفه في قيادة المعركة. نهض جميع الجنود للتحدي. وفي تحرك معنوي رائع. طلب طارق بعد ذلك من رجاله بأن "يحرقوا سفنهم". وقد بقيت اللغة الإنجليزية اليوم تتألق بهذه العبارة. "لتحرق مراكبك". التي تعني: أنت مصمّم جداً على المواصلات وليس عندك مجال التفكير بخيار الاستسلام أو الهزيمة. هذه البادرة المثيرة كان لها ثلاث منافع: أفنعت رجاله بأنه ليس

منظر لقصر الحمراء من حدائق جنات العريف، وفي خلفية الصورة يقع البيسين.  
A view of Alhambra Palace from Generalife Gardens. The Albaicin lies beyond.

سياسة حكيمة، نجحوا في تسخير الإمكانيات الكاملة لمواردهم البشرية. وفي تقدّمه نحو الشمال، أناب طارق عنه الحكّام اليهود والمسيحيين إلى العديد من البلدات والمدن.

طبقاً لـ "ستانلي لين بول"، عندما فتح المسلمون أسبانيا، اقتربوا من بلدة تحصّن فيها أحد القوط الغربيين يسمى "ثيودومر"، وهو أحد أفضل قادة الملك رودريك. هذه البلدة لم يكن فيها جنود، فالكلّ ذهب إلى ساحة المعركة في مكان آخر، لذا جمع ثيودومر كلّ النساء الحاضرات، وأعطاهن خوفاً، وطلب منهن ربط شعرهن الطويل حول ذقونهن كمثّل للحي.

وعندما اقترب الجيش الإسلامي، ذلك المساء، من البلدة رأوا ظلالاً. يبدو منها أن هناك جنوداً على أسوار المدينة، لذا قرروا أن الموقف كان خطراً جداً ويجب مهاجمته فوراً، وقرروا القيام بذلك في الصباح القادم، لكن قبل الهجوم، اقترب ثيودومر من المعسكر الإسلامي للتفاوض مع قائدهم وتعهّد بتسليم البلدة من دون قتال إذا سمح المسلمون لجميع من فيها بالذهاب أحراراً، وافق المسلمون، لكن عندما فتحت بوابات المدينة، وبدلاً من رؤية الجنود، دهشوا لرؤية طوابير طويلة من النساء يخرجن من خلال البوابات. وكان سرور القائد المسلم بهذه الخدعة الجريئة كبير جداً وأعجب بها، وبدلاً من أن يكون غاضباً، عرض على ثيودومر أن يكون الحاكم الجديد للمنطقة، وهذا يريك كيف عالج أسلافنا النبلاء رعاياهم بكرم، حتى أولئك المهزومين في المعركة، وكأنهم رسموا وسام استحقاق الجدارة قبل 1300 سنة.

بعد ثمانية قرون من فتح طارق، انخفض مستوى التقوى والإيمان لدى المسلمين في أسبانيا، فدفَعوا مقابل ذلك ثمناً باهظاً. في 1492، إنسحب أبو عبد الله الحاكم الأخير لإسبانيا الإسلامية، بخزي وإذلال، وهو يسلم مفاتيح غرناطة وينهي تلك الفترة المجيدة الرائعة في التاريخ الإسباني. لم يكن أبو عبد الله مجرد حاكم ضعيف تعاون مع أعدائه، ولكنه قتل أيضاً أفراد عائلته الذين خاف من محاولتهم إسقاطه، وجعله الله سبحانه يذكر دائماً لأمر لا يمكن أن يكون من نصيب القائد الجيّد، بينما كسب طارق بن زياد مكاناً نبيلاً في تاريخ الإسلام، وفي قلوب كلّ المسلمين، وحياته وإنجازاته يستحقّان دراسة أخرى.

لماذا كانت أخلاقياتنا مشعل نور رائع في وقت وصف فيه مؤرخون أوروبيون عصرهم بـ "العصور المظلمة"؟ ما هي أخلاق هذه الحضارة، من حيث التزامها بالحرية الدينية، التنوع الثقافي، البراعة الأكاديمية ونبل الشخصية؟ ما هي الاعتقادات والقيم التي كوّنتها مثل هذه الثقافة القيادية المستندة على الموهبة، بدلا من القبليّة أو الدين؟ هنا نجد ديمقراطية حقيقية حتى قبل اختراع كلمة الديمقراطية، ربّما يكون مفتاح الجواب في النقش العربي فوق بوابة مدخل جامعة غرناطة:

"العالم يستند على أربعة أعمدة: حكمة المتعلّمين؛ عدالة العظماء؛ صلوات الصالحين؛ وشجاعة الشجعان."





القبة التي أذل فيها أبو عبد الله من قبل الملك فيردناند والملكة إيزابيلا، حيث سلّم مفاتيح غرناطة في 1492. Pavilion where Boabdil was humiliated by King Ferdinand and Queen Isabella, handing over the keys of Granada in 1492 A.C.

**كانت أسبانيا الإسلامية حينها منكمشة إلى مملكة صغيرة جداً حول مدينة غرناطة. في أسفل جبال سيرا نيفادا المغطاة بالثلوج. الحاكم الأخير لغرناطة كان أبو عبد الله، رجل خالٍ من أوصاف الحكمة والعدالة والإيمان وشجاعة أسلافه. أبو عبد الله لم يكن طارق بن زياد. قتل بعضاً من أفراد عائلته، تعاون مع أعدائه الذين خانوه فيما بعد. وأخيراً أذلّ علناً وطرد من غرناطة إلى المنفى.**

أسلافه. أبو عبد الله لم يكن طارق بن زياد. قتل بعضاً من أفراد عائلته. تعاون مع أعدائه الذين خانوه فيما بعد. وأخيراً أذلّ علناً وطرد من غرناطة إلى المنفى. حتى أمّه كانت تحتقره. عندما وصلت عربتهم التي يجرها الحصان الجسر الأخير فوق المدينة. المعروف الآن بـ "جسر الحشرات". استدار أبو عبد الله نحو المدينة وبكى. ولا زالت كلمات أمّه الممرّة تذكّر إلى يومنا هذا: "إبك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال!"

تقترب من قصر الحمراء خلال حدائق "جنات العريف" العالمية المشهورة. ومثل كل الحدائق الإسلامية. إنه تصور مسبق. عيّنة في الأرض تعطي فكرة عما سيجيء من حديقة الله الأبدية. الجنة. هنا. مجازاً

واليونانية والعبرية. تخيل التجربة المليئة بالإحباط. وأنت تستمع للنقاش في الفلسفة والدين والمنطق. هنا. قبل ألف سنة. كان نموذج التسامح الديني. الحرية الثقافية والتنوع الثقافي الذي كان سائداً وما زال. محطّ تقدير العالم. لكن من المحزن أن ما كان ذلك ليوم.

وفي الوقت الذي اتحد فيه الملك فيردناند مع الملكة إيزابيلا ملكة أراجون وقشتالة في نهاية القرن الخامس عشر. كانت أسبانيا الإسلامية حينها منكمشة إلى مملكة صغيرة جداً حول مدينة غرناطة. في أسفل جبال سيرا نيفادا المغطاة بالثلوج. الحاكم الأخير لغرناطة كان أبو عبد الله. رجل خالٍ من أوصاف الحكمة والعدالة والإيمان وشجاعة

الحكمة. العدالة. الإيمان والشجاعة. كل يوم يدخل فيه الطلاب الجامعة. كانوا يحيون بهذه الكلمات النبيلة والمهمة. أبة طريقة رائعة لبدء يومك في الحرم الجامعي! هذه كانت القواعد القوية التي تأسست عليها أسبانيا الإسلامية. هذه كانت القيم الرئيسية التي أسندت الحضارة الرائعة والأكثر تقدماً في وقتها. هنا جلس علماء أمثال ابن حزم الأندلسي مع الحاخامات اليهود والمفكرين المسيحيين. وانشغلوا في الأحاديث الثقافية الأكثر عمقاً. واستخدم موسى بن ميمون. الفيلسوف اليهودي المشهور جداً. في مجلس الخليفة. كان ابن حزم تطبيقاً في عدّة لغات. فتمكن أن يحلّل بشكل نقدي ويناقش المخطوطات المكتوبة بالعربية واللاتينية



Beautifully carved wooden doorway, Alhambra, Granada.

مدخل خشبي منقوش بشكل جميل، قصر الحمراء، غرناطة.

وقد سمحوا لكل شخص أن يعيش على وفق تشريعاته الدينية".

أخذ الإسبان يتقبلون ببطء التراث المنسي من ماضيهم الإسلامي. في أول زيارة لي إلى غرناطة في 1983، قابلت الأسباني الأول الذي رجع إلى الإسلام، فقال إن عودتهم الروحية بدأت مباشرة بعد موت الجنرال فرانكو. المسلمون الأسبان المحليون الآن جالية متزايدة، وقيل أسابيع قليلة فقط شهدت غرناطة افتتاح مسجدها الأول بعد أكثر من 500 سنة، وكانت حقاً لحظة تهز الأعماق.

بحق لزوار الأندلس أن يتوقعوا تجربة ثقافية غنية بشكل كبير، وهي أيضاً بمثابة رقي في الجانب الروحي. سنجد الكثير مما يثير الإلهام، وزاد كثيراً للتأمل. لكن أذهب هناك مزوداً بقراءة صغيرة مقدماً، ولا تعتمد كلياً على الثقافة المحدودة للإدلاء السياحيين.

على الرغم من عمليات طمس التاريخ، فإن بعض بقايا ذلك التراث النبيل والجميل لأسبانيا الإسلامية يبقى سالمًا، مثل النقوش على النقود المعدنية التي ضربها الناصر، وعلى النقوش المتأنفة في الفصور والحصون الإسلامية في جميع أنحاء أسبانيا، والحقيقة الأبدية ما زالت ماثلة أبداً: "لا إله إلا الله، لا غالب إلا الله".

جمال قصر الحمراء كان موضوع الكثير من الأعمال الشعرية والموسيقى والأدب. الكاتب الأمريكي واشنطن إرفينج ألف كتاباً مشهوراً سمّاه "قصص من قصر الحمراء"، وصف أحد المعجبين زخرفة الحائط الرائعة بـ "الموسيقى المجددة". وكما هو الحال مع القرآن الكريم وهو يشير مراراً وتكراراً إلى الظواهر الطبيعية كآيات أو إشارات إلى الله سبحانه، فإنه أيضاً في التفاصيل والزينة المعمارية، يتكامل الخط القرآني بانسيابية تامة مع الأنماط الهندسية والزخرفة العربية والرسوم الطبيعية المصممة على شكل زهور وأوراق وأغصان دقيقة، كل حائط، كل مدخل، كل قوس وزاوية، ينشد أغنية مرثية، تسبحا لله تعالى. إن التأثير العام هو في جلب انتباهنا من الديوي إلى الأخروي، من هنا والآن إلى اللامحدود.

في رحلة العودة تكلمت مع دليلنا السياحي؛ وهو محام متقاعد مؤدب ورفيق. أخبرني عن التراث الرائع من الفترة الإسلامية، قال: "كما تعلم، العرب علمونا كيفية العيش بسلام وبنسجام، وقبل أكثر من ألف سنة، هم جسّدوا لنا كيف يمكن أن يقام الحكم على العدالة ويعم كل الناس وكل الأديان. كانت عندهم ثلاثة أنظمة قانونية: القانون الإسلامي للمسلمين، التوراة لليهود، والإنجيل للمسيحيين.

مصصفوف بأشجار شجرة السرو والنافورات التي تعكس صورة مشاتل زهور مشدّبة بشكل رائع. صوت الماء الجاري يهدئ الروح، بينما عطر نبات الآس والورد وزهر البرتقال يملأ الجو.

وتهبط بضعة خطوات أسفل سلم حجري مظلل لتدخل بلاط السفراء، كيف أصفه؟ إنه مدهش بحق. تستطيع حقاً سماع الشهيق المفاجئ، لهاث الدهشة وأنت تدخل مع مجموعتك القاعة، العيون تملأ بالدهشة. تفتح الأفواه من الرهبة والتعجب وتدرك فجأة بأنك محطوظ لكي تقف في مكان يمثل هذه الفخامة والعظمة الكبيرة، تتجول نظراتك صاعدة ببطء من المداخل المنقوشة بشكل معقد والحيطان والكوّات، الصاعدة إلى السقف، المقرنصات الملصقة في الزوايا والطوق المزخرفة تحوّل التفاصيل المعمارية البسيطة إلى أعمال فنية خالدة.

ينعكس نور الشمس الباهر نحو الأعلى في ساحة السباع المشهورة من المركز إلى الفناء المغطى، منيراً النقوش المعقدة في الأسفل. من الواضح جداً أن المهندسين المعماريين عرفوا بالضبط كيفية استعمال دور الضوء والظل في إبراز عملهم بأفضل نتيجة، وفي كل مكان، وبأبهه، ينسجم جمال آيات القرآن الكريم مع تزيينات مجرّدة وأخرى مطرزة بالورود. أحد الحيطان يحمل أسماء الله الحسنى الـ 99.